عيد العلم ولجنة التعريب

محاضرة ألقيت بمناسبة يوم العلم في 16 أفريل 1977م الموافق لذكرى وفاة ابن باديس

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

عيد العلم ولجنة التعريب

أيها المجاهدون، أبناء المجاهدين، وأحفاد المجاهدين.

ليس هذا الميدان الذي نغشاه اليوم، ونحتفل فيه بعيد العلم، واسبوع التعريب، إلا ميداناً فسيحاً من ميادين جهاد الشعب الجزائري البطل، وإنكم ها هنا، بوجوهكم النيرة، وعزائمكم القوية، وإصراركم العنيد، لتمثلوه أصدق تمثيل تلك الأجيال الغابرة، النيرة التي توارثت الجهاد كابراً عن كابر، فما سقط اللواء من يد إلّا تلقفته يد أخرى، بمثل الثبات وبمثل الإيمان، وما انكسر السيف البتار في كف، إلّا تلقفته كف بطل من أبطال هذا الشعب، وإن الأجيال لتمر، وإن الحقب لتتوالى، وهذا الشعب الأبي البطل دائب الكفاح دائم الوثبة، يندفع بعزيمة الأبطال الصناديد، نحو تحقيق أهدافه، وتجديد أمجاده، وإحياء ما اندرس من تاريخه الأسطوري الغريب.

وإن اجتماعكم اليوم، سيداتي وسادتي، في هذه القاعة الفسيحة الزاهية، قاعة دار الشعب، من أجل إحياء عيد العلم، وتمجيد، ذكرى المعلم الأول، رضي الله عنه وأرضاه، والعمل

الجاد الفعال في سبيل إحياء لغتنا الشريفة العالية، الغالية، الخالدة، ليمثل بكل وضوح فكرة القراع والجهاد الشعبي الحاسم، في سبيل إحياء مجد الشعب الجزائري، والخروج به نهائياً، وإلى الأبد، من ربقة الجهالة، والمهانة، والاستخذاء إلى مرتع العلم الغزير، والعزة الكاملة، والأنفة التي تركها لكم الأجداد الأكرمون، فزدتموها حفظكم الله وأبقاكم ذخراً للأمة، وعظمة للبلاد، رسوخاً وانتشاراً.

شعبنا واحد، هو شعب الكفاح والنضال، عقيدتنا واحدة، هي عقيدة الشرف والعزة والكرامة، ثورتنا واحدة، هي ثورة الحرية والاستقلال، وتمزيق أغلال الماضي الاستعماري البغيض، وكسر سلاسل الحديد التي طوق بها الاحتلال الأجنبي أعناق الشعب، سياسياً، وثقافياً، واقتصادياً، واجتماعياً، فخال أن تلك السلاسل والأغلال قد قضت على هذا الشعب نهائياً، وصيرته مسخاً بين الشعوب، لا هو إلى العروبة ولا هو إلى التغرب، لا هو مسلم ولا هو ملحد، لا يتذكر أجداده الأحرار، ولا يفكر في أمر أبنائه وأحفاده الأبرار، فما أن تمكن الاستعمار الشنيع من الأرض التي استحوذ عليها، بعد قتل وتشريد أصحابها، وقد احمرت من كثرة ما سال فوقها من الدم القاني، وما أن ابتز من الشعب الأبي كل ثروته، وكل أرزاقه، وما أن استخلص لنفسه كل منافع الثروة، مما فوق الأرض ومما تحت الأرض، حتى صاح بأعلى صوته دون حياء أو خجل: هذه أرض الجزائر أصبحت جزءاً من فرنسا إلى الأبد.

قال الشاعر العظيم ابن حمديس الصقلي:

مشوا في بلاد أهلها تحت أرضها وما مارسوا منها أبيا ممارسا
ولو شققت تلك اللحود لأخرجت لهم من بطون الأرض أسدا عوابسا
ولكن رأيت الغيل إن غاب ليثه تبختر في أرجائه الذئب مائسا

لكن عزيمة الرجال تفل الحديد، ووثبة الأبطال تقهر كل جبار عنيد، ومن غالب الشعب غلب، ومن نهب الشعب نهب، فهذا الشعب الجزائري البطل، الحر، النبيل، لان تحت وقع الصدمة، لكنه لم ينكسر، وسكت كثيراً بعد توالي المحن، ولكن ضميره ظل مستيقظاً، وفكره بقي واعياً، وأمله لم يفتأ حياً، كان ناراً تلظى تحت طبقات كثيرة من رماد الجبروت والقهر والعدوان، لكن عاصفة الحرية أقبلت عنيفة قاسية، فإذا بذلك الذي خالوه مات وأقبر وامتصت الأرض جسمه، يقوم مارداً جباراً على قدميه، يتقمص في شخصه العظيم الباسل أرواح أجداد نبلاء أشراف، مجاهدين، باعوا في سبيل العزة والكرامة، والحرية والاستقلال أرواحهم ودماءهم، وأرواح أباء كرام ذاقوا المذلة والهوان مكرهين، بعد جهاد عنيف، وكفاح مرير، وأرواح جيل الشباب، تطلع للحرية الحمراء، وهبت عليه نسمات فجر جديد، كله خير وبركة، فتقدم غير هباب ولا وجل، يقتحم حصون الموت ليستخرج منها بذور الحياة، ويزرع الأرض بدمه الطاهر، لكي تنبت له في ميادين العزة والفخار، هلاله الزاهر، ونجمته الثائرة يصارع الاستعمار في ثورة رهيبة قاسية، ما شاهد العالم لها مثلاً في شدتها، وعنفها، توالت فيها مواكب الشهداء

موكباً بعد موكب، فكان كل موكب متقدم للميدان يفوق الموكب السابق، شدة وقوة وبأساً.

رأينا رأى العين، سيداتي وسادتي، كيف أن قوة العزيمة وشدة الإيمان وصلابة المبدأ، تتغلب، وإن طال الزمن، على قوة المدفع، وطاقة الطائرات المحرقة، ونيران الدارعات المصفحة، وأذرعة المعتدين الآثمين، وكان النصر وكان الفوز المبين. وارتفعت فوق أرض نوميديا وعلى ذكر بني رستم، وبني حماد، وبني عبد الواد، وبني عثمان. رايات الحرية والاستقلال زاهية، فخورة إلى الأبد.

فالعظمة لله، والمجد للشهداء الأبرار، والخلود للوطن الطاهر العزيز.

لقد آن لنا سادتي وسيداتي، أن نرجع قليلاً إلى الوراء، لننظر كيف أخرج آباؤنا الحي من الميت، وكيف مهدوا الطريق وعبدوه، ليسلكه الفدائيون الأبرار، كي يحطموا الاستعمار، ويقضوا على الاستثمار، ويزيحوا نهائياً شبح ما أريد لهم من عار.

هنا نلتقي مع الفكرة الأساسية التي رصد لها هذا اليوم العظيم، أو القسم الأول منها على الأقل: ألا وهي عيد العلم.

لقد اتخذت الجزائر الحرة المستقلة، من ذكرى المعلم الأول، والقائد المحنك، والثائر الهادف عبد الحميد بن باديس، عيداً للعلم، ولنعلم ما فعلت الجزائر المجاهدة فشخصية ابن

باديس العظيم تخيم فوق ميدان النهضة الجزائرية، قبل إعلان معركة التحرير، وخلال معركة التحرير، وأثناء معركة البناء والتعمير، كأنما هي راية النصر المبين ترفرف فوق كل مجال، أو كأنما هي رائد الخير، تسير بالشعب نحو الحياة الحرة الزاهرية حياة الحرية الصادقة، وحياة الاستقلال الحقيقي.

لقد وفت الجزائر بحقها لعبد الحميد بن باديس، وخلدت ذكراه، فعيد العلم هذا، يعيد لأذهاننا ما لا يجب أن ننساه إطلاقاً من جهاد ذلك الرجل الحر الشريف ويذكرنا بأول ميدان اختاره ذلك النابغة الملهم، ليصول فيه ويجول، ويقدم للشعب العظيم الغذاء الصالح الذي دفع به نحو اقتحام المخاطر، ومهاجمة المعتدين، وكسر ناب الخائنين، إلى أن فازوا بالنصر والفتح المبين.

وإن في حياة ابن باديس لعبرة وذكرى لقوم يعقلون.

كان الرجل رَحِمَهُ اللَّهُ، نحيف الجسم، قصير القامة، شاحب اللون، وقد خيم فوق صدره داء خبيث وبيل، منذ شبابه، وكان يعلم أن داءه سيقضي عليه لا محالة، لكنه كان لا يأبه له، بل كان يعلم أنه لا يذهب ضحية لذلك الداء، إلّا بعد أن ينزع عن الشعب الأبي ما طوقه به الاستعمار من أغلال العبودية، والجهل، وفقد الكرامة.

ولسنا ها هنا، سيداتي وسادتي، بذاكرين حياة ابن باديس الحافلة، التي ألفت فيها مجلدات ومجدلات، بل سنكتفي،

بمناسبة عيد العلم، أن نلخص مبادئ تلك الحياة وأفكارها، وآرائها، وأن ننظر خلالها إلى معالم الطريق التي حددها، وأقامها لكي يصل في اتجاهها إلى غايته المنشودة: ألا وهي: تطهير الدين، تصفية العقيدة، العلم الصحيح، جمع وحدة الشعب الجزائري، محاربة كل أنواع الظلم والطغيان، تكوين الجيل الصالح الذي يقهر الاستعمار، ويستخلص حرية الشعب واستقلاله من بين براثنه المجرمة.

لقد ابتدأ عبد الحميد بن باديس حياته عالماً مخلصاً، لا يلهى على طلبته العديدين الذين جاوزوا الألف، مبادئ العلوم كما يلقيها بقية الشيوخ، بل كان يعلمهم العلوم ـ علوم الدين وعلوم الدنيا ـ حسب منهاج مبتكر، وطريقة حرة واسعة، تفسح أمام العقل مجال التفكير الصحيح، وتقضي على الخرافات والأوهام، والعقائد البالية، حتى تمكن من إنشاء جيل كامل عالم، عامل، حر، مؤمن بالله، ومؤمن بالوطن، ومؤمن بالحرية.

إلى جانب ذلك كان عبد الحميد بن باديس يصادم الطرقية المفسدة التي استحوذت على عقول العامة وعلى عقول أنصاف العلماء، مصادمة لا هوادة فيها، يقارع الحجة بالحجة، ويقارع فيها الدليل بالدليل. إلى أن انتزع الشعب من بين أيدي جهلة مغرورين اتخذوا من قبور آبائهم وأجدادهم الصالحين، مورداً للاسترزاق، وباعوا ذمتهم ـ إلّا القليل منهم ـ للمستعمر الآثم، الذي رأى فيهم نعم المعين على تنويم الشعب، وقتل حيويته،

وإقناعه بأن الله ﷻ قد قسم الحظوظ بيننا وبين المستعمر: نحن لنا الآخرة، وهم لهم الدنيا وزينتها، ناسين قول الرسول الأعظم ﷺ: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لأخرتك كأنك تموت غداً.

أولئك قوم بثوا مبادئ المستعمر الفاجر، بأرض الجزائر، كما لخصها الشاعر العظيم معروف الرصافي، حين قال:

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّم

قال لهم عبد الحميد بن باديس، كلا الدنيا لنا، والآخرة لنا، ولا تصلح أمور الدين إلا بصلاح أمور الدنيا، وتمثل بما جاء في القرآن الشريف: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وإلى جانب بث العلم، والتنويه بمبادئ وأفكار ابن تيمية، ورجال العروة الوثقى وبناء المدارس، وإلى جانب محاربته الطرقية، وتحطيم أباطيلها، وإزالة عبادة القبور، ومحو فكرة الوساطة بين العبد وربه، عمد ابن باديس لنشر دعوته السلفية الصالحة، العلمية القويمة إلى إنشاء الصحف الحرة، لبث فكره، وتزويد الشعب بآرائه، فكان المنتقد أولاً، ثمّ كان الشهاب الاسبوعي، ثم الشهاب الشهري الجليل، ثم صحف جمعية العلماء العديدة المتوالية، التي ما ذهبت صحيفة منها ضحية القوانين الاستعمارية الجائرة إلّا خلفتها صحيفة أخرى مثلها، وأشد منها.

وحارب إلى جانب ذلك فكرة الاندماج، ومحو الشخصية، والتنكر للتاريخ، وتعاونا معاً على ذلك تعاوناً وثيقاً في سبيل الله وفي سبيل الوطن، وفي سبيل المستقبل السعيد.

وجاهد في سبيل الحرية الساطعة جهاداً محموداً، في كل خطبه السديدة، الشديدة وفي مقالاته ودروسه. وكنا، بما أكتبه أنا في الشهاب، أو بما يكتبه هو رَحِمَهُ اللَّهُ، ندافع عن الحرية في كل مكان، ونشيد بجهاد الأحرار المناضلين في سبيل الحرية، سواء أكانوا بالهند أو بمصر، أو بفلسطين، أو ببقية بلاد العرب، أو بلاد العالم المستعبد بأفريقيا وبآسيا أو بأمريكا اللاتينية، وهكذا كنا نخوض كل شهر، مدة اثني عشرة سنة أو تزيد، معمعة حامية الوطيس، دفاعاً عن الحرية، ودفعاً للشعب في طريقها، المملوء أشواكاً وأوحالاً، فلا يسلكه إلّا الفدائي المخلص، الذي باع روحه ودمه فداء لله وللوطن.

ناضل النضال المحمود، إلى جانب كل ذلك، في سبيل وحدة الشعب، ووحدة البلاد، مقاوماً بذلك ما كان يسعى الاستعمار الخبيث لنشره بين كل طبقات هذا الشعب الجزائري النبيل من تفرقة عنصرية خبيثة، ومن قطع لأوصال هذا الشعب وتمزيقه طرائق قدداً، فهذا عربي، وهذا قبائلي، وهذا ميزابي، وهذا شاوى، وهذا كول أوغلي، وما إلى ذلك من تفرقة خبيثة، قضى عليها الإسلام الحنيف حينما نزلت الآية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾. وقوله ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى»،

نشر ابن باديس وناضل في سبيل مبدأ: شعب واحد في وطن واحد، كلنا للجزائر الماجدة وللإسلام الحنيف، في سبيلهما نحيا، وفداءهما نموت.

فهذه المبادئ العالية، وهذا الجهاد الموفق الذي لا هوادة فيه قد اقترن مع هذا الرجل الملهم بأخلاق وبفضائل يجب علينا أن نذكرها كل حين، وأن نجعلها نصب أعيننا وأن نقدمها لأبنائنا من بعدنا، فهي تلك الأخلاق التي جعلت من عبد الحميد بن باديس عظيماً، والتي مهدت له سبل النجاح والفلاح في معركة بعث الشعب بعثاً جديداً، فمن أخلاق ابن باديس التي لازمته طول حياته، التواضع النهائي الذي عبر عنه الرسول الأعظم بقوله: «سيد القوم خادمهم»، والتي قال الله عنها لرسوله العظيم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كان يرى أنه الأخ لكل رجل، وأنه الوالد لكل طفل، وأنه الولد لكل شيخ، ما كان يرى في الحياة رفيعاً أو وضيعاً، بل كان يرى فوق تراب الشعب الجزائري رجالاً متكافئين، عاملين، جادين المهتدي منهم يستحق التشجيع، والضال منهم يستحق النصيحة والأخذ باليد، كانوا جميعاً عنده، وبصفة عملية فعلية، كأسنان المشط، كما قال الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، وذلك هو المبدأ الاشتراكي الأول: التساوي المطلق بين أفراد الشعب عند الله وعند الوطن لا يتفاضل بعضهم عن بعض إلّا بالعمل والجهاد.

كانت له رَحِمَهُ ٱللَّهُ صلابة الحديد في الحق، لا يراوغ في تلك

الصلابة ولا يتسامح إطلاقاً، الحق عنده حق يجب أن ينصر ويؤخذ بيده، والباطل عنده باطل يجب أن يحارب ويقضى عليه، وكان في هذا السبيل متبعاً قوله ﷺ: «أفضل الجهاد عند الله كلمة حق بين يدي ملك جائر»!.

كانت له عزيمة صلبة، يقرر ويخطط، ثم يندفع بقوة إيمانه ويقينه في طريق التنفيذ يقول أنه ليس هنالك من عقبة تقف في طريق الإنسان، فالإنسان خلق كي يذلل العقبات وكي يتغلب على المصاعب، مهما كانت، فما أكل الإنسان إلّا بعد زرع وحصاد، وما لبس الإنسان إلّا بعد غزل ونسج، وما انتصر الإنسان إلّا بعد التغلب على كل ما اعترض طريقه من عوائق ومن معوقين، الحياة عنده كفاح من المهد إلى اللحد، فمن توانى وتخاذل، كان نصيبه الإخفاق والتلاشي، العزيمة سعي متواصل وعمل جاد، والله يقول في القرآن الشريف:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿39﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

كان له ثبات غريب عجيب، كان في كل مواقفه العامة والخاصة، يقف وكأنه الجبل الصامد الذي لا تحركه الرياح ولا تزعزعه العواصف، يسير دوماً واستمراراً إلى الأمام، يعرف أن الله معه، ويعرف أن الحق إلى جانبه، ويعرف أن الشعب يؤيده ويؤازره، فالتقف الدنيا ضده فهو لا يعبأ بها، وليجند الاستعمار ما شاء ضده من قوى، فيقول مع القرآن: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وهكذا سار، عازماً، حازماً، جريئاً، جسوراً، طيلة حياته، إلى أن دعاه الله للرفيق الأعلى، فلبى

داعي الله راضياً مرضياً، تاركاً وراءه شعباً حياً، ورجالاً كملاً، وشباباً جسوراً ومبادئ قويمة، وسيرة حميدة، وذكراً يعبق مع كل نسيم، كأنه ريح الورد والياسمين.

هذا هو عبد الحميد بن باديس أيها السادة، وأيتها السيدات هذا هو أبو الوطن هذا هو باعث الشعب، هذا هو فاتح الطريق المستقيم، هذا الذي دعونا يوم ذكراه عيد العلم، فإذا ما نحن احتفلنا بهذا العيد في دار الشعب، فقد مجدنا العلم ومجدنا المعلم ومجدنا الشعب معاً.

أما القسم الثاني من هذا الحفل الكبير الضخم، فهو قسم لجنة التعريب. وإذا كنتم تقيمون سادتي وسيداتي كل سنة اسبوعاً للتعريب، فإن ذلك يعتبر عملاً رمزياً يراد به التعبير عن فكرة أساسية انبثقت عنها الثورة، وأسفر عنها انتصار الثورة، ألا وهي إرجاع اللغة العربية الخالدة، لغة الأمجاد والأجداد، إلى سالف عزها، وغابر شمولها وانتشارها بهذا الوطن المجاهد الكريم.

وللتعريب قصة أيها السادة والسيدات، طويلة متشعبة، والحديث عنها ذو شجون فالقضاء على عروبة الجزائر، والحملة العارمة في سبيل تعريب الجزائر، تلك هي خلاصة كفاح دام مائة وخمسين عاماً إلى يومنا هذا، وإنه لكفاح متواصل، مستمر، إلى أن يكلل بنصر مبين، آت لا ريب فيه، إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً.

فإذا ما نظرنا الأسباب التي أدت بالشعب الجزائري الأبي

إلى خوض معركة التحرير الصارمة الرهيبة، وجدنا أن قضاء المستعمر على لغة العرب وعلى تعليم العربية، واعتباره لغة الدين والقومية لغة أجنبية، تعامل في بلادها كبقية اللغات الأجنبية، كانت إلى جانب تقويض الكرامة، ونهب الخيرات، وانتزاع الأرض من أصحابها، والحكم على «الأهلي» بالتشرد والحرمان، من أكبر أسباب نقمة الشعب على الاستعمار وعلى المستعمرين، وإعلان الحرب التحريرية الكبرى، التي أكلت أخضرنا ويابسنا، وحصدت شعبنا حصداً، إلى أن فزنا بحريتنا وباستقلالنا، وأصبحنا والحمد لله دولة رفيعة الشأن، تذكر في محافل الدول ولها كلمة صائبة تقال، ولها صوت في العالم مسموع.

ثم إذا ما نحن نظرنا إلى نتائج هذه الحرب التحريرية العارمة، نراها قد حققت للوطن الجزائري الكريم ما كان يصبو إليه منذ سنة 1830م من حرية تامة، ومن استقلال حقيقي كامل، لا شائبة فيه، ثم نراه في ظل هذه الحرية وتحت رايات الاستقلال التي تخفق منتصرة فوق أرجاء البلاد، لم يضع وقته سدى، بل بادر منذ فجر استقلاله، بتحقيق ثورة السلام، المرتكزة على عمد: الثورة الزراعية، والثورة الاقتصادية، والثورة الثقافية. وقد وصل في وقت قصير جداً، بفضل إيمانه وتصميمه، إلى إدراك غاية لم يدركها شعب قبله في مثل هذه البرهة من الوقت، وما هي قيمة 15 عاماً في عمر الزمان.

إننا نرى ثورتنا الزراعية قد عمت وشملت كل البقاع،

والأرض التي ابتزها المستعمر المجرم خلال ثلاثين ومائة سنة، قد أرجعت كلها ـ نعم كلها دون استثناء ـ إلى أصحابها الذين اطردوا منها مهانين، ونفذت الثورة السلمية المباركة فيما يتعلق بالأرض التي استرجعت من الأجنبي، القاعدة الاشتراكية القرآنية الصريحة: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾. وجزئت الأرض الأخرى، فنال وسينال كل فلاح نصيبه منها، وأنشئت القرى الاشتراكية الصالحة، وهي تعم وتنتشر، منتشلة الفلاح من فجر ضب خرب، القبر أفضل منه، إلى المسكن الصالح، حيث الماء، والنور، والمدرسة، والمسجد، وكل ما يكفي للحياة البشرية السعيدة.

ثم نرى ثورتنا الاقتصادية، سادتي وسيداتي، وقد أخرجتنا من عالم الفاقة والتخلف الفظيع، إلى عالم الإنتاج والازدهار، فنفطنا وغازنا مؤممان، لفائدة كل الشعب على الإطلاق، ومعاملة الكبرى تقام في كل أرجاء البلاد، وتنمو وتزدهر، وتكاد تصنع لنا كل شيء وصناعاتنا الثقيلة قد كادت تبلغ درجة الكمال، والعمال الذين صنعوا بأيديهم كلّ ذلك، وأداروه بجدارة وهمة، يشاركون في الإدارة، وفي الابتكار، وينالون من الأرباح نصيبهم الموفور، وأسطولنا الجوى المحترم، يخترق كبد السماء إلى أقصى جهات الأرض في نظام بديع، ودقة يحسد عليها، وأسطولنا البحري قد نشأ من لا شيء، فإذا به يشمل الآن تسعين سفينة محترمة، ويعتبر أضخم أسطول لأي بلد

عربي، وأي بلد أفريقي، وما أنا بمبالغ والله في كل ما قلته، بل أؤكد أنني دون الحقيقة بكثير، فمعجزة الجزائر الخالدة ليست في ثورتها التحريرية الكبرى، وانتصارها العظيم فحسب بل هي أيضاً، وربما أكثر من ذلك فيما حققته بعد الانتصار من نهضة مدهشة، أذهلت الأصدقاء والأعداء معاً، وانظروا ـ ولا ريب أنكم نظرتم ـ ما تقوله عنا صحف العالم، بين شرقية وغربية، فهي تبدي إعجابها، ولا تخفي تقديرها، ومنها ـ وهذا طبيعي ـ ما لا تكاد تكتم حسدها.

ونرى أخيراً، سادتي وسيداتي، ثورتنا الثقافية الهائلة، المدهشة، التي قلبت صورة البلاد، والتي أخرجتنا، أو كادت تخرجنا، من عالم الظلمات إلى عالم النور، وإنني أوكد لكم تأكيداً قاطعاً، أنه ما من شعب من شعوب العالم المستعمر، استطاع أن يقوم بمثلها أو بما يقاربها، خلال هذه المدة الوجيزة من الزمن.

ولهذه الثورة الثقافية، كمّ، ولها كيف، والنظرة تختلف فيها إذا ما نظرنا إلى هذا الكمّ، وإلى هذا الكيف.

إذا ما نظرنا إلى الكمّ، وجدنا أمراً مدهشاً حقاً، فخلال هذه الأعوام القليلة من الاستقلال إلى اليوم، قفزنا بعدد تلاميذنا من نصف مليون إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون مع مراعاة أن النصف مليون الذي كان يغشى المدارس قبل الاستقلال، كان لا يتعلّم إلّا الفرنسية لا غير، أما الثلاثة ملايين ونصف المليون الذين يغشون المدارس هذه السنة فهم كلهم والحمد لله، يتلقون

التعليم العربي خالصاً خلال السنوات الأولى حتى إذا ما اكتسبوا ملكة العربية، أضف إلى تعليمهم اللغة الفرنسية، كلغة ثانية. أما مدارسنا الثانوية، ومدارسنا الفنية، وثانوياتنا المختصة، فقد وثبنا بها طويلة إلى الإمام، إن مجموع عدد طلابها قد جاوز النصف مليون، بعد أن كان قبل الاستقلال لا يزيد عن العشرين ألفاً، وإذا ما نظرنا إلى التعليم العالي وجدنا أننا قد قمنا بأمر عظيم فبدل الجامعة الواحدة، أصبحنا نملك أربع جامعات، والجامعة الخامسة والجامعة السادسة ستفتحان قريباً الأبواب، وبعد أن كان عدد طلابنا في التعليم العالي لا يزيد عن الخمسمائة شاب، أصبحت جامعاتنا الآن تشمل ما يقارب المائة إلف، والنمو مستمر، والوثبة إلى الإمام جامحة، لا يعترضها شيء، ولا تقف أمامها عقبة.

هذا من حيث الكمّ، سادتي وسيداتي، أما من حيث الكيف، فالأمر يدعو إلى نظرة فاحصة عميقة، سواء من حيث طريقة التعليم أصالة، أو من حيث التعليم العربي بصفة أخص.

فأول ما يلاحظ على التعليم العام الابتدائي، هو كثرة التلاميذ بصفة مدهشة، وقلة المدارس، وعدم توفر المعلمين، سواء منهم أصحاب الكفاءات أو من دون ذلك فالازدواج المدرسي غير صالح، حسب رأيي، للتلاميذ، إذ هم لا يتلقون التعليم الابتدائي إلّا نصف الوقت فقط، ويترك النصف الثاني لتلاميذ غيرهم، بينما يترك الأولون للدار، أو للطريق العام في المدن حيث أن المساكن لا تكفي لإيواء الطلاب، وهذا ما

أوجب إغفال قسم من أصناف التعليم العام كان يجب أن يكون موفوراً، أن الضرورة الملحة التي أوجبت ذلك وأرجو أن تزول قريباً.

وأول ما يلاحظ على الثانويات، وعلى الجامعات، هو أنها تشتمل على نوعين من التعليم، فمنها ما هو معرب، ومنها ما هو أجنبي اللغة، وهذا يؤدي بنا حتماً إلى ازدواج الثقافة، على ما في ذلك من خطر على وحدة الشعب، وعلى وحدة الوطن.

وإني لأتوجه قبل كل شيء للسيد الأستاذ عبد اللطيف رحال، وزير التعليم العالي الجديد، بالتهنئة المخلصة، لتبوئه هذا المنصب الرفيع، وأرجوه، باسمكم جميعاً أن يجابه هذه القضية مع مساعديه، بكل ما يجب من اهتمام، حتى تسير جامعاتنا وثانوياتنا سيراً موفقاً متوازناً نحو الكمال.

ولنلج الآن، سادتي وسيداتي، باب التعريب من أوسع أبوابه.

التعريب موجود فعلاً في المدارس، في الثانويات، في الجامعات، لكنه تعريب غير متوازن وغير كاف بالمرة، ولست بداخل أبواب تخصص فني في هذا المجال، فله رجاله وله المختصون فيه، إنما أنا أتكلم بصفة عامة، وألقي على الموضوع نظرة شاملة.

إن الثورة الثقافية، سادتي وسيداتي، هي روح الثورة، هي

صميم الثورة، هي هدف الثورة، فالشعب الذي سلبت لغته نحواً من 130 عاماً، وثار ثورته العارمة من أجل استرجاع لغته، التي هي جهازه العصبي في بنية وطنيته وقومية، يريد إرادة جامحة أن يسترجع لغته المشردة، ويسترجعها بصفة حقيقية فعالة، لا بصفة نظرية.

وإنه ليدرك إدراكاً تاماً أن الاستعمار الثقافي هو شر أنواع الاستعمار، وهو أخطر أنواع الاستعمار، وهو إلى جانب ذلك أكثر أنواع الاستعمار طاقة على البقاء، وأنه إذا ما تفاقم أمره، آل إلى القضاء على الوطنية وعلى القومية.

فاللغة الفرنسية، وهي لغة حية عالية، قد فرضت على بلادنا فرضاً، بقوة الحديد والنار، ولا أنكر، ولا ينكر أحد، أنها قد تغلغلت في المدن الكبرى بواسطة المدارس. وأثبتت وجودها في القرى والبوادي بواسطة الجندية الإجبارية، أو بواسطة الهجرة للبلاد الفرنسية من أجل العمل فراراً من الفاقة والبطالة التي كانت في عهد الاستعمار من نصيب الجزائريين، فكان اقتلاعها أمراً صعباً.

ثم إننا نرى ونلاحظ، بل نعلم علم اليقين، أن هنالك من كان يقف حجر عثرة في سبيل تعريب البلاد، وإحلال العربية في العلم والعمل محل اللغة الفرنسية، بل هنالك وهذا أدهى وأمر، بعض رجال الإدارة ممّن أصم أذنيه عن النداءات المستمرة التي صدرت منذ زمن بعيد من سيادة رئيس الجمهورية الهواري بومدين، والتي حددت آجالاً للموظفين كي يتعلموا العربية قراءة

وكتابة وكلاماً، وأمر بالسماح ساعة كل يوم، في كل وزارة، تقتطع من العمل الإداري، من أجل التعليم العربي، لكن تلك الصرخات المتوالية قد ذهب كثير منها أدراج الرياح، ومضت الآجال تلو الآجال، وبعض الرجال لا يأبهون بذلك، ولا نزال نراهم إلى اليوم، لا يتكلمون إلّا الفرنسية، في أعلى المستويات، هؤلاء قوم لم يؤمنوا بالعربية ولم يؤمنوا بالتعريب، ولا ترجى منهم توبة لا قريباً ولا بعيداً، إنما يجب الانتباه لهم، ومعاكسة اتجاههم، وتثبيط مساعيهم، كيلا يصدق علينا قول القائل:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وهنالك مشكل آخر، يعترض حركة التعريب في المدارس الابتدائية، يجب عليها أن نوليه كل اهتمامنا، ألا وهو مشكل تقاعس وتكاسل بعض معلمي العربية في المدارس الإبتدائية، وبعض الثانويات. ولست أدري أيقع هذا التكاسل نتيجة عجز، أو نتيجة عدم إيمان، أو نتيجتهما معاً، إنما الأمر المحقق هو أن التلميذ يجني تلك الثمرة المرة المذاق، وتراه ينساق طبعاً إلى اللغة الأجنبية، يقتطف منها ما لذ وطاب.

فآباء التلاميذ لا يستطيعون مراقبة التعليم العربي، لأن كثرتهم الكاثرة جاهلة لم تتعلم العربية، أو لم تتعلم إطلاقاً. أما الرقابة الإدارية، فهي معدومة أو شبه معدومة لعدم وجود المقدار الكافي من رجال التعليم ومن المراقبين، وللضرورة أحكامها القاسية.

هنا أقول صراحة، سادتي وسيداتي، أنه يجب على الحزب الواحد، حزب جبهة التحرير الوطني، أن يقوم بواجبه كاملاً، فليست وظيفة الحزب الواحد في أي بلد ما، أن يعتكف على القضايا السياسية أو القضايا المبدئية، تاركاً الحبل على الغارب في بقية قضايا الشعب والبلاد.

على الحزب، وجوباً، أن يراقب الإدارة، عليه أن يراقب ويوجه حركة التعليم العام والتعليم العربي على الأخص، عليه أن يكون الحارس الأمين لمصالح الشعب في كل نواحي الحياة، عليه أن يراقب الحالة الأخلاقية في المدن الكبيرة والقرى الضخمة، وقد تدهورت وهوت إلى أسفل سافلين، بل وصلنا فيها، ولا أخشى أن أقول هذا جهاراً، إلى درجة الحيوان الوحشي، حتى أصبحت الفضيلة رذيلة في نظر البعض، وصار الطهر دنساً، وأصبحت الأمانة شر أنواع الخيانات.

على الحزب واجب محتم، هو أن يشكل اللجان العاملة القوية التي تسهر على تحقيق كل ما جاء في الميثاق الوطني، وتنفيذ نص وروح ذلك الميثاق، وتراقب سير التعريب وسير التعليم، وتحرص على صون الشعب من تلاعب المتلاعبين، واختلاس المختلسين، وخيانة الأدناس الذين يعتبرون المصالح العامة وسيلة لتعمير الجيوب، والعيش في يسر على حساب الشعب.

إن لم يقم الحزب بهذا العمل اليوم، فإنه سيقوم لا محالة بواجبه غداً، ثم أن هنالك من يقول عن التعليم العربي العالي،

أن لغتنا العربية ليست لغة علم، وليست لغة تدريس. هذا سادتي وسيداتي، كذب وتدليس وافتراء، إن اللغة العربية ـ قديماً وحديثاً ـ قد وسعت كل العلوم وكل الفنون، وانظروا جامعات القاهرة، ودمشق، وبغداد، أنها تدرس كل العلوم باللغة العربية، مستعينة في بعض التقنيات بلغة أجنبية، وأنها لتؤدي واجبها على أوسع نطاق، وتخرج للعالم أجمع، علماء جلة، وفحولاً في كل علم.

وإذا ما استعصى علينا علم من حيث المفردات، فهنالك سادتي وسيداتي، مجامع لغوية عالمة، عاملة، واعية، تشتغل ليل نهار بإيجاد الكلمات العلمية التي تجعل مختلف العلوم في متناول كل الجامعات. وأخص بالذكر منها المجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي بدمشق، وببغداد، ومكتب تنسيق التعريب الذي أنشأته جامعة الدول العربية بالرباط.

إن حجة المبطلين داحضة، واللغة العربية مزدهرة حية ناهضة، ومن أراد الوقوف معها ونشرها، وجد الأدوات الصالحة، ووجد الأساليب المجدية، ووجد الهيئات التي تمده بكل ما يحتاج إليه، هذا حديث أسوقه خاصة للجنة التعريب التي أرجو أن تزداد عملاً ونشاطاً، وعمقاً في البحث، ودرساً متواصلاً للوسائل الناجعة بإنجاح هذه الحركة والسير بها قدماً إلى الأمام.

إن حركة التعريب يجب أن تشمل كل المدارس على مختلف طبقاتها، إنما يجب أن تشمل كذلك البيت والطريق

العام، البيت يجب أن يعرب، يجب أن يسير مع الحركة العربية القومية الدافقة، فمن تكلم في بيته، ومع أهله وأطفاله، لغة أجنبية ـ إلا لدراسة ـ فقد أجرم في حق لغته، وأجرم في حق شعبه، وأجرم في حق وطنه.

والطريق يجب أن يعرب، فلا نستعمل في مخاطباتنا، ولا في معاملاتنا، ولا في مخازننا التجارية، إلّا لغتنا العربية، سواء أكانت الفصحى أم العامية، بهذا نسمو بلغتنا، ونفرضها فرضاً.

لقد كنت بأندونيسيا سنة 1960م، ورأيت فيها يومئذ حركة غريبة في الصحافة وفي كل المجتمعات، رأيت لافتات ضخمة علقت فوق كل الشوارع تقول كلها: من تكلم لغة أجنبية في حديثه أو معاملاته، فقد خان الوطن، وإنك لا تجد اليوم في أندونيسيا من يتكلم لغة أجنبية، مع معرفتهم للغات الأجنبية، هكذا حققوا استقلال الوطن ثقافياً، وعلمياً.

فلنكن رجالاً، ولننتصر في معركة التعريب، كما انتصر أبطالنا وشهداؤنا في معركة الاستقلال.

ومن أراد فعل، والنصر للعاملين، والسلام عليكم ورحمة الله.